حِبر أبيَض
WHITE INK

د. عبدالحق الصنايبي

ثورة المقَنَّع الخراساني:
الدين في خدمة الأهداف السياسية

يواصـــل موقع "حبـــر أبيض" التطرُّق إلى مختلـــف التنظيمات الدينية والسياســـية التي بصمت تاريخ جغرافيا الإســـلام، وأثَّرت في التوجه السياسي والالتزام الديني لشرائح من المسلمين، بل كان لها امتداد داخل منظومة الدولة الإســـلامية، ونجح بعضها فـــي التحكم في مفاصل الدولة وتوجيه ناصية قرارها السياسي.

في هذه المقالة ســـنتطرق إلى الفِرقة التي يُنسَب أصحابها إلى "المقَنَّع الخراساني"، الذي يقول عنه ريحان البيروني بأن اسمه هاشم بن حكيم، ويقال إنه كان دميم الوجه، بَشِع المنظر أخفى وجهـــه وراء قناع من الذهب، ووضع قِطَعًا من الحرير الأخضر مكان العينين في القناع، ولذلك أُطلِق عليه لقب المقَنَّع.

ويقول إدوارد براون في كتابه "تاريـــخ الأدب في إيران" بأن المقَنَّع "ادَّعى الألوهية، وأنه لما لم يكن في قدرة أحد أن يراه قبل التجسُّـــد فإنه قد دخل في قالب إنسان وفي صورة البشر حتى يُرى، وقد عبَر هذا الرجل نهر جيحون وتوجَّه إلى نواحي كَشّ ونَسَـــف (نخشب)".

وإذا كان "المقَنَّع" غير مســـؤول عن خِلقته، فإنه مسؤول عن سلوك ديني وسياسي خبيث هو مزيج من مجموعة من المعتقدات المُحدَثة التي تَنهَل من المعتقدات الدينية الفارسية (الحلول والتناســـخ)، التي تم تَبنيها من طرف مجموعة من الحركات الدينية-السياسية التي كانت تبحث لها عن مُسوِّغات دينية لتبرير هدفها السياسي.

ولعل دراســـة حالة المقَنَّع الخراســـاني تفيد في فهم الآليات التي تجعل المرء يقع ضحية المذاهب السياســـية المنحرفة والتيارات الدينية الباطلة، وكذلك استيعاب آليات الاستلاب الذهنية التي تجعـــل العقل يتوقف أمام شـــخصيات "ذكية وخبيثـــة" لعبت على نواقص العقل البشـــري وتناقُضات المجتمع العمراني لخَلْق قاعدة مادية تكون حطَبًا للوصول إلى الســـلطة متى استطاعوا إلى ذلك سبيلًا.

في هذا الســـياق بدأت دعوة "المقَنَّع" في مرو (قريبًا من تركمانستان الحالية) كرِدَّة فِعل عكسية على بعض الاضطرابات التي لم يُحسِن تدبيرها القائمون على أمر المسلمين، وهو ما يُشكِّل -في العادة- مناسَبةً لتيارات الإسلام السياسي للركوب على حركية الجماهير من أجل تهييج العامة؛ لتحقيق أهداف سياسية بعيدًا عن الطرح الديني الأصيل.

ونشـــير هنا إلى أن المقَنَّع كان أحد القُوَّاد في جيش أبي مسلم الخراساني الذين ساهموا في إســـقاط الدولة الأموية، كما أنه كان من الدارســـين لعلوم المنطق والفلســـفة، بالإضافة إلى أنه تميَّز بالذكاء الخارق، وعُرف بخفة اليد، والقدرة على الســـيطرة على مَن حوله، وتقول بعض الروايات أنه ادَّعى النبوة في وقت من الأوقات.

وعلى نهج دعوة "المظلومين" التي تبنَّتها تنظيمات الإســـلام السياســـي بشقَّيها السُّني والشـــيعي (الموسوي في لبنان، والإخوان في مصر وفلســـطين)، سيعمل المقَنَّع على دعوة الناس للإيمان بعقيدته الشـــاذة، مستغِلًّا حالة الاحتراب السياســـي والديني التي انتشرت في ذلك الوقت. وهكذا شـــكَّلَت "دعوة" المقَنَّـــع مزيجًا من الطموح السياســـي والبحث عن إطار ديني وشـــخصية مرجعية (أبو مسلم الخراساني).

وحتى يبرِّر "المقَنَّع" عملية الالتحام بروح أبي مسلم الخراساني قام باعتناق عقيدة تناسخ الأرواح التـــي تقول بانتقال الأرواح الصالحة من شـــخص إلـــى آخر، وهي العقيدة التـــي قام المقَنَّع بتأويلها من خلال ادعاء ظهوره في صورة آدم عليه الســـلام، ثم في صورة موســـى وعيســـى ومحمد (ص)، وعلي (ك)، وأبي مسلم الخراساني.

وهنا يظهر ذكاء المقَنَّع حين اســـتغل اسم وصورة أبي مسلم الخراساني في أعين الفرس التي تُرســـخ -في رأيهم- لصورة من صور الخيانات العربية للفرس الذين ساهموا في خدمة المشروع "العربي"، والانتصار "للإســـلام العروبي"، قبل أن يغدروا بهم، وتكون صورة أبي مســـلم الخراســـاني شبيهة بصورة الحسين رضي الله عنه وموقعة كربلاء.

في هذا الصدد علينا أن نقف عند هذه الصورة لنشـــير بأن تنظيمات الإسلام السياسي لم يكن يهمها يومًـــا الانتصار للدين، أو تلقين النـــاس أصول وثوابت العقيدة، وإنمـــا كان التركيز على "العواطف والمشاعر" لتهييج العامة من أجل تبني مشاريع انقلابية عن طريق جماعة من "القطيع" يَســـهُل توجيههم لخدمة المشروع السياسي والانقلابي على رموز وثوابت الدولة.

إن شـــخصية المقَنَّع الخراســـاني كانت فريدة من نوعها، حتى إنه صدَّق الخرافات التي كان يُرَوجها بين الأتباع، وهـــي الظاهرة التي تُحِيلنا على المثل الفرنســـي lorsqu'on prétend quelques choses on l'aquit (عندما ندَّعي شيئًا نُصدِّقه)، حيث آمن المقَنَّع بهذه الأفكار، وحملها معه إلى قبره.

وهنا يروي إدوارد براون، على لســـان ابن الأثير، أن المقَنَّع حين رأى الموت واقعًا لا محالة، جمع نساءه وأسرته، وأعطاهم السم ليشربوه، وأمر أن يُحرق جسده في النار حتى لا يضع أي شخص يده عليه، ويروي آخَرون ان المقَنَّع قال: "كل من يريد أن يذهب معي إلى الجنة فليُلقِ بنفســـه معي في هذه النار، ثم ألقى بنفســـه في النار مع أسرته وزوجاته وأصحابه المختارين فاحترقوا".

ومن الأمور التي يجب الانتباه إليها والاســـتفادة منها، من خلال دراسة حركة "المقَنَّع"، أن المقاربة الأمنية الصرفة في مواجهة التنظيمات الإرهابية بشـــقَّيها "الجهادي" و"السياســـي" تبقى قاصرة وغير كافية، على اعتبار أن القضاء على رأس التنظيم لا يعني -بالضرورة- القضاء على الفكرة التي آمَن بها الآلاف، وهنا نســـجل بأن فلول تنظيم المقَنَّع بقيت تنشـــط لقرون بعدها، وهناك مَن يقـــول بأن "هذه الجماعة من أصحاب الأرْدِيَة البيضاء، أو أتباع المقَنَّع، قد بقيت على مســـرح الوجود حتى القرن الحادي عشر".

إجمالًا يمكن القول بأن الاســـتفادة من قصة "المقَنَّع الخراســـاني" تكمن في سد المنافذ التي قد تتســـلَّل منها التنظيمات الدينية-السياسية لتأطير مَن لا حَظَّ لهم في التنمية، وظلوا على هامش المجتمع، أمـــا النقطة الثانية فمرتبطـــة بتبنِّي مقاربة إســـتراتيجية متكاملة للقضاء على البيئة المنتجة والمصدِّرة للعناصر المســـتعدة لأن تكون حطبًا لمثل هاته التنظيمات الانقلابية.